

العالم الافتراضي وأثره على تشكل الهوية الاجتماعية للمراهقين

أ. حنان المزوغي

كلية الآداب/ جامعة مصراته

المقدمة :

أحدثت التطورات التكنولوجية الحديثة نقلة نوعية، وثورة حقيقية في عالم الاتصال، حيث أصبح له تأثير ملحوظ على الحياة البشرية بأسرها؛ الأمر الذي جعل أفراد المجتمع بجميع فئاته يعيشون في ظل عالم تقني ومجتمع افتراضي سيطر على أكثر اهتماماتهم واستنزف الكثير من أوقاتهم، ومن بين أبرز تلك الاهتمامات إقبالهم على مواقع التواصل الاجتماعي التي توفرت لهم عن طريق شبكات الانترنت، وتعتبر تكنولوجيا الاتصال والمعلومات وثقافة الانترنت من أهم سمات العولمة لإسهامها في إحداث انقلابات في مفاهيم المكان والزمان والفضاء الاجتماعي، وذلك بدخولها إلى مضامير الثقافة والفن والتواصل الحضاري والإنساني والتسلية والإعلام، وأصبحت متاحة ومؤهلة لتتداخل مع نواحي الحياة كافة، وهذا ما جعلها تعد مصدر قلق للكثير خوفاً من المستقبل، الذي يتسم بابتعاد الشباب عن الحيز الواقعي إلى الحيز الافتراضي بفعل جاذبيته وقدرته على إتاحة نطاق من الحرية والاختيار في عالم متغير عرف بعالم الوسائط المتعددة التي أنتجت ما يمكن اعتباره شكلاً رقمياً للحواس الإنسانية "بصرية، سمعية، لغوية، حركية" تجعل التواصل في الفضاء الافتراضي ممكناً وممتعاً لدرجة أنه في كثير من الأحيان يحل محل الحيز الواقعي، هذا الفضاء الافتراضي لا يؤثر في صورتنا عن العالم، بل إنه يؤثر في صورتنا عن ذاتنا وعن الآخرين وفي طريقة الحياة والفكر، فتلك الوسائط التي نستخدمها تدخل في دورة إنتاج المعنى الوجودي والثقافي بتوسطها للعلاقة بين الدال ومدلولاته، الأمر الذي زاد من دورها في تشكل هوية

الأجيال، ولا شك أن الاتصالات عبر الانترنت أصبحت تمهد لثقافة يصنعها المراهقون والشباب للتغلب على الثقافة التقليدية⁽¹⁾.

فالفضاء الذي يضم شبكة الانترنت بمختلف خدماتها وتنوع أنماط الاتصال بها، أدى إلى تمثل آخر للعالم الذي نعيشه، فأنتج ما اصطلح عليه بالعالم الافتراضي، الذي يوازي العالم الواقعي بغض النظر عن الفروق التي تميز كل منهما عن الآخر، فالعالم الافتراضي أيضا يسكنه أفراد وجماعات اجتماعية بشتى أنواعها تقريبا، غير أن التفاعل الاجتماعي بين أفراد هذه الجماعات تطبعه خصوصيات يتعين الكشف عنها من وجهة نظر سيكولوجية وسوسيولوجية.

تحديد مشكلة الدراسة:

إن عملية اكتساب الهوية تعد من الوظائف الأساسية للمجتمع وبوابة الانتماء لثقافته، حيث تقوم بإكساب الطفل عناصر الثقافة والمهارات المطلوبة للتفاعل مع محيطه، بأنواع النشاطات التي تتطابق مع الهوية، والعلاقات داخل الجماعات وتطوير الأدوار ونماذج السلوك المتعلقة بها؛ ليكون منسجماً ومنتمياً إلى مجتمعه وقادراً على المشاركة الإيجابية، فالانتماء يشكل وعي الفرد بانتمائه إلى جماعة ما لغةً وتاريخاً وقيماً وسلوكاً، ويحافظ على الهوية الثقافية وخصوصيته، وقد ذكر ماكس فيبر أنه كلما تعددت انتماءات الفرد كلما أدى ذلك إلى الاغتراب وتشنت المعاني وفقدانها، وهذا التعدد ربما يؤدي إلى تغاير في أنظمة التنشئة وطبيعة جهودها، وقد يؤسس لقواعد مضطربة في تكوين الشخصية، وإلى طول فترة إنجاز الهوية أو الفشل في إنجاز العديد من مجالاتها، خاصة مع الاستعمال المكثف للتقنيات الحديثة للاتصال، وعلى رأسها شبكة الانترنت ومواقع التواصل الاجتماعي، الذي أسهم في تكريس انعزال الأفراد، وضعف الروابط الاجتماعية الناجمة عن عدم تلاقي الأفراد مادياً. وتحدد مشكلة الدراسة الحالية في التساؤل

الرئيسي التالي: هل تفاعل مستخدمي العالم الافتراضي بمضمونه الاجتماعي والثقافي يرقى إلى تشكيل أو إعادة تشكيل الهوية لديهم ؟
أهمية الدراسة :

تأتي أهمية هذا الموضوع من أهمية التطور التكنولوجي، والاهتمام المتزايد بتقنيات الاتصال في جميع المجالات وعلى جميع الأصعدة، التي أصبح امتلاكها ومدى التحكم فيها معياراً أساسياً يقاس به تطور الأفراد والمجتمعات أو تخلفها، بالإضافة إلى ظهور ما يسمى بالعالم الافتراضي، الذي أصبح مجالاً للتفاعل بكل ما يحمله من مضامين ثقافية واجتماعية.

أهداف الدراسة:

1. معرفة أثر العالم الافتراضي على تشكل الهوية .
2. جمع معلومات كافية لتقديم تشخيص موضوعي عن الدراسة الحالية .
3. الوصول إلى مجموعة من التوصيات لضبط هذه الظاهرة والإسهام في اقتراح آليات تحافظ على مقومات المجتمع .

منهج الدراسة:

تعتمد هذه الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي، وذلك لما يتميز به هذا المنهج من الدقة والتركيز، الذي تتطلبه طبيعة هذه الدراسة .

حدود الدراسة :

تتحدد هذه الدراسة بالحد الموضوعي لها والمتمثل في دراسة أثر العالم الافتراضي على تشكيل الهوية عند مستخدميه .

الدراسات السابقة :

1- دراسة (إليزابيت) بعنوان الاتصال والمجتمع في منتديات المحادثة الالكترونية: وقد تناولت هذه الدراسة تاريخ ونشأتها منتديات الدردشة، والخصائص التي تتميز بها و كيفية تشكل المجتمعات الافتراضية، وقد توصلت الدراسة إلى تحديد السمة

الأساسية التي أدت إلى شيوع استخدام منتديات الدردشة بشكل سريع وواسع، وهي إمكانية إخفاء الهوية، وكذلك انعدام الرقابة الاجتماعية، وتمّ فإن المدر دشين لهم الحرية التامة في التعبير ومناقشة أي موضوع، ومن نتائج هذه الدراسة كذلك أن المجتمعات الافتراضية أدت إلى نشأة لغة خاصة بها، تتكون من أشكال ورموز ورسومات مختلفة، بالإضافة إلى تشكل معايير وقواعد خاصة بهذه المجتمعات.

2- دراسة هورمان 2005 بعنوان : دراسة استكشافية للتفاعل الاجتماعي الذي يحدث على شبكة الانترنت: تتناول هذه الدراسة أشكال التفاعل الاجتماعي الذي يحدث على الشبكة العالمية، خاصة في إطار إنجاز نشاطات جماعية للتكوين والتعليم عبر الشبكة، وقد ركزت الباحثة على الجانب السوسيو ثقافي للأفراد المشاركين في مثل هذه التفاعلات، وكيفية ارتباطهم، وقد توصلت الباحثة إلى أن هذا التفاعل يؤدي إلى درجة كبيرة من التأثير المتبادل بين هؤلاء، حيث يرتبطون ببعضهم بشكل يؤدي إلى تغيير عدة جوانب في حياتهم، ومن تمّ فإن الدراسة بينت أن التفاعلات الافتراضية قد تحدث أثراً في حياة الأفراد هو نفسه الذي يحدث في التفاعلات المباشرة وجها لوجه .

3- دراسة (فالري وسيرج وفلدوفسكا) بعنوان: "دراسة المحادثات الالكترونية من خلال الانترنت": تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن مختلف أشكال الانتماء الاجتماعي، والمشاركة في النقاشات على الشبكات الالكترونية، وأشكال التفاعل الذي يتم بينهم، وكيفية تشكل الجماعات الافتراضية، وقد توصلت الدراسة إلى أن الصفحات الشخصية تؤدي دوراً كبيراً في بناء العلاقات الاجتماعية بين الأفراد حيث إنها تعكس البيئة الاجتماعية للفرد، وهي التي تنقل لنا خصائصه وسماته الشخصية.

الجانب النظري : أولاً / العالم الافتراضي :

لقد عرفت البشرية منذ فجر التاريخ عدة تطورات وتحولات اجتماعية، كان أبرزها على الإطلاق، التطور والتحول الحاصل في المجتمعات المعاصرة بفعل تكنولوجيات الاتصال الحديثة، التي غيرت كل نواحي الحياة تقريباً، وأثرت في معظم أنشطتها، حيث اقتحمت وسائل الاتصال كل المجالات الحياتية، وأجبرتها على التعامل معها كواقع لا بد منه، وعلى التفكير في كيفية إدماجها في أنشطتها وأعمالها اليومية.

ومن الوسائل الاتصالية التي ميزت هذا العصر وأحدثت القدر الأكبر من التأثير والتغيير، شبكة الانترنت العالمية، التي تختلف كثيراً عن وسائل الاتصال التي سبقتها، سواء من حيث استعمالها، أو خدماتها، أو عدد مستعمليها، أو انعكاساتها وتأثيراتها على مختلف المجالات، وقد قامت باختزال كل الوسائل الإعلامية والاتصالية الأخرى واحتوائها، فيمكن بها اليوم الاتصال مع الآخرين مهما كان مكانهم في كل أنحاء الكرة الأرضية التي يتوفر فيها الربط بالشبكة العنكبوتية، إلى غير ذلك من المجالات الأخرى التي لحقها تأثير الانترنت ووسائل الاتصال المختلفة، التي جعلت عالم اليوم يعيش "ثورة جديدة من نوع خاص، فاقت في إمكاناتها وآثارها كل ما حققه الإنسان من تقدم حضاري خلال وجوده على الأرض"¹، فالتقدم الحاصل في النصف الثاني من القرن العشرين، قد يعادل كل الفترة السابقة التي عاشها الإنسان، وتعوض كل ما توصل إليه؛ وإذا كانت وسائل الإعلام الأخرى مجتمعة قد أحدثت جزءاً كبيراً من التغيير والتأثير على حياة الأفراد، فإن شبكة الانترنت عندما ظهرت تجاوزت كل هذه الوسائل، وأصبح تأثيرها يعادل بل يتجاوز تأثير كل الوسائل الأخرى، نظراً لتمييزها بخصائص كثيرة و إتاحتها لخدمات واستعمالات متعددة، لم تكن موجودة من قبل فشبكة "الانترنت ليست كغيرها من وسائل الإعلام، فهي كونية وعالمية، ومتاحة لكل الأفراد دون

استثناء، وما يميزها عن باقي الوسائل هو أن المستعمل يمكنه أن يشارك في مضمونها، ويضيف أو يغير أي شيء ويمكنه أن يختار الخدمة التي يشاء .

لقد أثرت التكنولوجيات الحديثة للإعلام والاتصال في جميع المستويات والفضاءات كافة التي يتحرك ضمنها الفرد المعاصر، حيث أتاحت بذلك أنماطاً اتصالية جديدة، الأمر الذي جعلها تحدث تأثيرات عميقة في بنية المجتمعات المعاصرة وعلى مستويات كثيرة، كتغير أنماط الاتصال السائدة، وتغيير في القيم، وأساليب التربية والتعليم، كما أسهمت في خلق فضاءات اجتماعية جديدة لالتقاء الأفراد، رغم تباعد الفضاءات الجغرافية التي يتواجدون فيها، وأعدت تشكيل بنية المجتمع إذ عملت على تهديم عادات اجتماعية كانت سائدة، كالتواصل الفيزيقي بين الأفراد، فلم تعد الأسر أو الأصدقاء أو مختلف الجماعات تلتقي ببعضها جسمانياً بل يكاد ينعدم معها هذا التواصل⁽²⁾ .

ومن تمّ نجحت هذه الأنماط الاتصالية التي تتيحها شبكة الانترنت في خلق مفاهيم مجتمعية جديدة تأسست من خلال البيئة التي يحدث فيها هذا التواصل، وبذلك أسهمت في خلق بيئة تفاعلية جديدة تحاكي البيئة التقليدية، ومن بين أبرز المفاهيم المرتبطة باستخدام تكنولوجيا الاتصال والانترنت، مفهوم "المجتمع الافتراضي" الذي يُعرّف بأنه : التمثيل شبه الواقعي للأشياء والأجسام والأشخاص وبيئات تواجدها، مضافاً إليها فكرة التفاعلية الدائمة بين مستخدم الحاسب والرسوم والصور الرقمية التي يتعامل معها، كما يعني استعمال الحاسب في النمذجة والمحاكاة التفاعلية لتمكين شخص ما من التفاعل مع بيئة اصطناعية أخرى حسية أو بصرية ذات أبعاد ثلاثية، يستخدمها ويعيش معها وبينها كأنها أشياء حقيقية موجودة على أرض الواقع⁽³⁾ .

ويعرفه "محمد منير حجاب" بأنه "مجتمع يتكون من أشخاص متباعدين جغرافياً، ولكن الاتصال والتواصل بينهم يتم عبر الشبكات الالكترونية، وينتج بينهم نتيجة لذلك نوع من الإحساس والولاء والمشاركة"⁽⁴⁾.

ويعرفه كذلك "سيرج بروكس" بأنه: "مجموعة أفراد يستخدمون بعض خدمات الانترنت الاتصالية (منتديات المحادثة، حلقات النقاش، أو مجموعات الحوار...) والذين تنشأ بينهم علاقة انتماء إلى جماعة واحدة، ويتقاسمون نفس الأذواق، القيم، والاهتمامات ولهم أهداف مشتركة"، ومن تم فإن الشيء المميز في هذه المجتمعات كونها تتشكل على أساس اهتمامات وأشياء مشتركة بين هؤلاء المستخدمين، أي أن الصفات والخصائص الموجودة في كل شخص هي التي تحدد نوع الجماعة الافتراضية وطبيعتها التي ينتمي إليها ويندمج فيها؛ أما "شرام" فهو يرى أن المجتمع الافتراضي هو عملية تقاسم فضاء للاتصال مع أفراد لا نعرفهم، وغالباً ما يتم هذا في الوقت الحقيقي، وهو عبارة عن انعكاس للمجتمع الواقعي، لكن لا يوجد فيه أناس حقيقيون واتصالات حقيقية كما في الواقع (أي أنها افتراضية) وهو عبارة عن جمهور من كل أنحاء العالم، جالسين أمام شاشة الكمبيوتر للتواصل مع بعضهم".

وقد تكوّن هذا المجتمع نتيجة عدد من العوامل التي مهدت لظهوره أهمها الشبكة الدولية للمعلومات وتشكل الفضاء الرمزي، وعلى الرغم من تشكله وظهوره إلا أن صورته لم تكتمل بعد، ذلك لأنه مرتبط بتكنولوجيا الاتصال، وبمجتمع المعلومات العالمي وأبرز، هذه العوامل هي :

1- سرعة التغيرات التي تطرأ على المجتمع، وارتباط تحولاته بصناعة البرمجيات التي تتطور في عالمنا بصورة ملحوظة .

2- كثرة المتفاعلين في السياق الافتراضي، إذ إن هذه التفاعلات بدأت على المستوى النخبوي، والآن يتعامل معها كل من يجيد أساسيات التعامل مع الكمبيوتر.

3- تفاوت أعمار المترددين على تفاعلات المجتمع الافتراضي، إذ إنه لا يرتبط بشريحة عمرية واحدة، فجميع الأعمار منذ الطفولة حتى الشيخوخة تتفاعل في هذا السياق⁽⁵⁾.

4- تعدد الصور والآليات التي يتواصل بها الأفراد ما بين غرف محادثات مجموعات بريدية وقوائم بريدية ومنديات ومدونات، وغيرها من طرق التفاعل⁽⁶⁾.
لقد تجسدت المجتمعات الافتراضية بكبيرة في السنوات الأخيرة مع ظهور الجيل الثاني للإنترنت وأصبحت وسيلة مهمة جداً للأشخاص حتى يتفاعلوا مع بعضهم، ومن الواضح أن مثل هذا المفهوم للمجتمع الجديد (المجتمع الافتراضي) الذي تشكل فيه الإنترنت بيئة التفاعل، أصبح ينبئ بتفاعلات وتعاملات جديدة تميزها طبيعة الاتصال في حد ذاته، الأمر الذي أنتج العديد من المفاهيم الجديدة سواء فيما يتعلق بالاتصال والتفاعل أو حتى الهويات والمشاعر وطبيعة العلاقات الاجتماعية في حد ذاتها.

ومن مما سبق يمكن لنا تحديد الخصائص و السمات العامة للمجتمعات الافتراضية:

خصائص المجتمعات الافتراضية:

- تتميز بكونها جماعات مصالح؛ لأنها تتشكل بفعل الاهتمامات والمصالح المشتركة.
- يتقاسم أفرادها نسبياً الاعتقادات والعادات والقيم نفسها، ولهم إحساس بالتضامن.
- لا يوجد فيها حضور فيزيائي، ولا تقارب جغرافي بين الأفراد (إلا في بعض الأحيان) ولا وقت حقيقي، فغالباً ما يكون الوقت متفاوتاً بين المتفاعلين جغرافياً.
- تتميز هذه المجتمعات بالعالمية، أي يشارك فيها أفراد من كل أنحاء العالم.

- تتميز باستعمال أفرادها أسماء مستعارة وهويات مستعارة ويقدمون غالباً بيانات غير مطابقة للواقع .
- يتميز أفرادها بعدم التجانس في بعض الجوانب، فقد يكون لكل شخص مستوى معين أو مهنة تختلف عن الآخرين .
- تتميز بأنها مجتمعات مؤقتة وليست دائمة، فيمكن لها أن تزول في أي وقت خاصة إذا تناقص عدد أفرادها.
- توفر فرصاً أكبر لأعضائها للتفكير بحرية، والتعبير في كل المواضيع .
- يتميز أفرادها بالولاء والخضوع لقواعد ومعايير هذا المجتمع؛ لأن كل فرد يتأثر بالجماعات التي ينتمي إليها، وتأثر في سلوكياته، وتجعله ينساق مع آرائها، فالفرد يتفاعل ويتصل بجماعة ما، حسب نمط معد مسبقاً، لا يمكنه أن يبتعد أو أن يتخلى عنه، مخافة أن يبقى منعزلاً ومرفوضاً من طرف غيره⁽⁷⁾.
- تتميز هذه المجتمعات باستخدام رموز ولغة خاصة بها، وهي عبارة عن إشارات ورسوم تستخدم للتعبير عن الحالات النفسية للأفراد وعلى تلميحات الوجه .
- تتميز بأن لها قواعد سلوك خاصة بها، تلزم كل منخرط جديد أو مستعمل أن يلتزم بها وأن يحترمها، وهي تتضمن عموماً بعض المواد والقوانين التي تشرح للأفراد كيفية الاستخدام وآداب التعامل فيما بينهم⁽⁸⁾.

ثانياً / الهوية:

تؤدي الهوية دوراً رئيساً في مواقع الشبكات الاجتماعية، فهي الخطوة الأولى التي تمكن المستخدمين من معرفة الأشخاص الذين يتواصلون معهم، وتعتبر الهوية من أهم القضايا التي يطرحها استخدام مواقع الشبكات الاجتماعية ذلك لأنها تعتبر غامضة نوعاً ما إذا ما عدنا إلى محددات الهوية التي اعتدنا عليها في العالم الفيزيائي، وتعتبر الصفحات وشبكات الأصدقاء التي يقوم المستخدم بخلقها جوهر مواقع الشبكات الاجتماعية، فبعد التسجيل فيها عبر الانترنت يكون المستخدم

مطالباً بإنشاء صفحته الشخصية التي تحدد هويته التي تتنوع حسب طبيعة الموقع، فالفيسبوك على سبيل المثال يوفر نظام يسمح للمستخدمين بإنشاء معلومات مفصلة عنهم وفي الوقت نفسه يتيح للمستخدم اختيار ما إذا كانت هذه المعلومات ستكون عامة أو خاصة، ومباشرة بعد إنشاء الملف الخاص يصبح المستخدم عضواً في المجتمع ويقوم بإنشاء قائمة الأصدقاء التي ستكون أساساً لهذا المجتمع .

غير أنه ومع زيادة استخدام مواقع الشبكات الاجتماعية من قبل مختلف الفئات أصبح موضوع الهوية من أهم القضايا التي أثارها هذا الاستخدام، ففي الوقت الذي يفضل فيه بعضهم تجسيد هويته الحقيقية على الشبكات فإن بعض المستخدمين يتجه اتجاهاً آخر بانتحال الشخصيات أو خلق هويات جديدة ولأغراض مختلفة .

تمثل تشكل هوية الأنا أزمة النمو الاجتماعي في المراهقة، وقد اعتبرها اريكسون مرحلة تحول وعلامة انتقال من الطفولة إلى الرشد، تتميز بوجود صراعات وقلق لدى المراهق من أجل تحقيق مجموعة المطالب والتحديات، التي من أبرزها الاستقلالية والتفرد، وهذه التحديات تستمر حتى تحقق مطالب الرشد .

وقد وجد اريكسون أن البحث عن الهوية يصبح استثنائياً وشديد الخطورة في مرحلة المراهقة، حيث تتمثل الأزمة في الحاجة إلى بناء هوية متماسكة، وأن بعض أشكال هذه الأزمة ضروري للمراهق لحل قضايا الهوية التي تتضمن مشاكل الألفة والمودة - والعلاقات والأدوار المؤطرة من الأسرة - صعوبات في توظيف المحصلة الاجتماعية بطريقة واقعية - السيطرة على المشاعر والانفعالات، ومرحلة الأزمة هي فترة من التعليق السيكولوجي الاجتماعي لإنجاز الهوية⁽⁹⁾ .

وترتبط أزمة الهوية بمرحلة المراهقة وبدايات الشباب، حيث تمثل المطلب الأساسي للنمو في هذه المرحلة وتعبر عن تحول في شخصية المراهق نحو الاستقلالية الضرورية للنمو السوي في المراحل القادمة، وتنمو الهوية من وجهة نظر اريكسون وفق مراحل متتابعة يواجه الفرد في كل منها أزمة معينة، ويتحدد

مسار نموه تبعاً لطبيعة حلها إيجاباً أو سلباً متأثراً بعدة عوامل بيولوجية واجتماعية وثقافية، ويشير مارشيا أن تقاطع العوامل البيولوجية والاجتماعية تجعل الهوية إما في حالة الإنجاز أو التعليق أو الانغلاق أو التشتت، وتُعبّر حالة الإنجاز عن أن الفرد قد نجح في التزاماته أدواره الاجتماعية، أما حالة التعليق (التأجيل) فإن الفرد في حالة الأزمة، يشهد نشاطاً كبيراً في البحث حول البدائل للوصول إلى خيارات الهوية، وحالة الهوية المغلقة تبين أن الفرد لم يختبر أزمة لكنه ملتزم بقيم ومعتقدات مرتبطة بأشخاص مهمين، كالأسرة والراشدين المحيطين، فيما تُبين الهوية المشتتة أن الفرد لم يختبر حتى الآن أزمة هوية، ولا أي تعهد أو التزام للمعتقدات أو الأدوار، ولا توجد دلائل إلى نشاطه من أجل إيجاد سمة الهوية لديه⁽¹⁰⁾

إن تطور الهوية يواكب النضج المعرفي والاجتماعي للمراهق الذي يساعده في استكشاف الأدوار، وجمع المعلومات حولها، ثم يقوم باختيار ما يناسبه منها وتجربتها ويقرر الالتزام باختياراته من البدائل المتاحة، وهذا التفاعل بين المتغيرات ضروري لاستكشاف وإنجاز الهوية⁽¹¹⁾ .

أما اضطراب الهوية فإنه يأخذ شكلين أساسيين من وجهة نظر اريكسون، هما:

1- اضطراب الدور: يرتبط اضطراب الدور بفشل المراهق في خلق تكامل بين توحيدات الطفولة مما يؤدي إلى استمرارية التعليق وتحوله من مجرد فترة اختبار إلى نوع من الاضطراب المعيق لحل أزمة الهوية وتبني الأدوار المناسبة، حيث يعاني المراهق فيه من الإحساس بالذات وعدم القدرة على تحديد معنى لوجوده، مما يؤدي إلى فشله في تحديد وتبني أدوار وأهداف ذات معنى أو قيمة شخصية واجتماعية، هذا بالإضافة إلى ضعف التزامه بما تفرضه عليه الصدفة من أدوار، وترتبط هذه السمات بدرجة عالية من القلق، ومشاعر عدم الكفاية، والسلوك الجامد المتعصب، وضعف القدرة على اتخاذ القرارات، وسوء علاقاته الاجتماعية، وضعف الالتزام بأهداف وأدوار ثابتة⁽¹²⁾ .

2- تبني الهوية السالبة :

يمثل هذا النمط الوجه الأخطر لاضطراب الهوية، حيث يرتبط بدرجة أعلى من الإحساس بالتفكك الداخلي، الذي لا يقتصر تأثيره في عدم تحديد أهداف ثباته أو تحقيق الرضا عن دوره الاجتماعي، بل ويؤدي ذلك دوراً أكثر سلبية في حياة الفرد بصفة عامة، حيث يدفع بالمراهق إلى ممارسة أدوار غير مقبولة اجتماعياً، كالجنوح وتعاطي المخدرات⁽¹³⁾ .

العوامل المؤثرة في تكوين الهوية:

1- البيئة الاجتماعية :

إن أزمة الهوية تختلف في شكلها ومضمون وحدتها من مجتمع لآخر ومن حضارة إلى حضارة، وأن المراهق يعكس في أزمته ظروفها اجتماعية وحضارية معينة، فالأزمة لا تكون استجابة لتغيرات داخل الفرد نفسه، وإنما تكون نتيجة لاستجابة البيئة التي يعيش فيها للتغيرات التي تطرأ عليه، فتفسير الأزمة يجب أن نبحت عنه في الظروف الاجتماعية التي تحيط بالمراهق⁽¹⁴⁾.

وتتأثر الهوية الذاتية بطبيعة المجتمع الذي تنشأ فيه، ففي المجتمع البدائي البسيط الذي تنحصر فيه الأدوار الاجتماعية تكون عملية تكوين الهوية أسرع من المجتمع المتقدم سريع التغير، الذي تتعدد فيه الأدوار الاجتماعية .

ويرتبط هذا التأثير بالظروف الاقتصادية المحيطة بالفرد، خاصة أن العالم يشهد ثورة تكنولوجية متسارعة، تؤثر في التغيرات الاجتماعية المصاحبة للنمو الاقتصادي، فالشخص إما أن يشعر بكبر حجم الهوية في مقارنته بالدول الغربية، فيصبح مفهوم الهوية مهزوزاً ومضطرباً لدى أصحاب هذا النوع من التفكير، أو الانبهار بتلك الدول، فيؤدي الوضع الاقتصادي المتردي إلى تفاقم النظرة الطبقيّة في المجتمع الواحد الأمر الذي ينتج عنه تأخير في التغلب على أزمة الهوية⁽¹⁵⁾ .

2- التأثيرات المعرفية:

تعتبر القدرة المعرفية للفرد عاملاً مؤثراً في اكتسابه الهوية الشخصية؛ ذلك لأن الفرد يجب أن يكون قادراً على تحديد إمكاناته وقدراته بصورة موضوعية، وإذا كان بعضهم يرى أن هذه القدرة تعين المراهق على بحثه عن هويته، فإن هناك من يرى أن هذه القدرات عند المراهق تزيد كذلك من صعوبة عملية البحث؛ لأن المراهق يصبح قادراً على تخيل كل أنواع الإمكانيات، أو الاحتمالات بالنسبة لهويته⁽¹⁶⁾. وبذلك فإن البنية الثقافية تعد عاملاً مؤثراً في تشكيل الهوية، وذلك بما توفره هذه البنية من تعدد الخبرات والنماذج التي تتيح للفرد الفرصة لتحقيق هوية متكاملة، ونظراً لأن الثقافة عالم منفتح - خاصة في ظل التطور التكنولوجي والصراع الحضاري - فإنها قد تؤدي دوراً سلبياً في تشكيل الهوية إذا لم يتم ضبطها وفقاً للمبادئ الدينية والمعايير الاجتماعية السائدة .

لقد أحدثت الثورة التكنولوجية وغيرها من عوامل التغير الثقافي إعادة في تشكيل الكثير من معارفنا ومفاهيمنا عن الحياة، وتقويض أغلب تصورات الإنسان عن ذاته وعن عالمه، الأمر الذي أدى بدرجة كبيرة إلى التذبذب وعدم الاستقرار في القيم الموروثة والمكتسبة على حدٍ سواء، وعدم مقدرة عدد كبير من أفراد المجتمع وخاصة المراهقين على التمييز الواضح بين ما هو صواب وغير صواب⁽¹⁷⁾ .

3- التأثيرات الأيديولوجية:

يسعى المراهقون إلى تحديد إطار فكري عقائدي (أيديولوجية دينية) للاعتماد عليه كركيزة أساسية في حياتهم لتحقيق هوياتهم الخاصة والمتميزة، كما أنهم ينظرون إلى قيم ثقافتهم وأيديولوجيتهم مصدراً مؤكداً للثقة ويهين الدين والأيديولوجية الاجتماعية رؤية واضحة لفلسفة الإنسان الأساسية، ويؤكد الاستمرارية الوراثة لهوية الشخص واحترامه لنفسه عضواً في مجتمعه وثقافته .

وهذا التأثير يبدو واضحاً لدى المنتمين لأحزاب السياسية والجماعات الدينية المختلفة، حيث إن هذه الجماعات تغرس في أعضائها قيماً ومبادئ تساعد على تخطي أزمة الهوية وتقوي لديهم مفهوم الهوية الاجتماعية والأيدولوجية، إلا أنها لا تخلو من بعض التأثيرات السلبية كالعصبية الحزبية والولاء الأعمى الذي يجعل العضو مقلداً لهوية غيره .

إن فترة المراهقة تعد نقلة نوعية للمراهق في المستوى التعليمي وتطور مهاراته الاجتماعية وقدراته العقلية والجسمية، ويعتبرها اريكسون مرحلة التعليق السيكولوجي الاجتماعي للهوية، حيث تناضل الأنا في التفاعل مع الأدوار المعروضة في المجتمع، وإن كل المراهقين يتوقع أن يختبروا بعضاً من هذه الأزمات، لأن أزمة الهوية هي مرحلة نمائية والقدرة على تحقيق متطلباتها بنجاح يرتبط بطبيعة النماذج الاجتماعية، والخبرات الجديدة التي يتعرض لها المراهقون خلال التطورات الاجتماعية، وتعد من المؤثرات المهمة في تشكيل الهوية .

إن ما تتعرض له المجتمعات عامة من أزمة متعددة الأبعاد . في سياق التغيرات الناتجة عن التحولات الاجتماعية والمعرفية التي دعمت الرفاهية . وتوافر البدائل وتنوع طبيعة القضايا الفكرية حول نوع الإنسان الذي يستطيع مواكبة المتطلبات المتجددة، يؤدي إلى تغاير في أنظمة التنشئة وطبيعة جهودها، وقد يؤسس لقواعد مضطربة في تكوين الشخصية، وإلى طول فترة إنجاز الهوية أو الفشل في إنجاز العديد من مجالاتها.

إن عملية تشكل الهوية ترتبط بالعديد من المتغيرات المرتبطة مع بعضها، وهي:

1- كلما كانت عملية التوحد أو التقمص لشخصية الوالدين قبل مرحلة المراهقة وأثناءها أكبر، كان احتمال الوصول إلى إنجاز ذي معنى⁽¹⁸⁾.

2- الاختلاف في التنشئة ينعكس على الاختلاف في الوسائل والطرق المستخدمة لتشكيل الهوية، فالأطفال الذين يعيشون في بيوت تتصف بالتسامح أو الإنكار أو

الرفض يعاني أطفالها من غموض الهوية، وقد يجدون مشكلة في حل أزمة الهوية بنجاح كما أن الأطفال الذين يأتون من بيوت متسلطة يمكن أن يتخذوا طرقاً مختلفة، فإما أن يمتثلوا لاختيارات الوالدين أو يتمردون، وبذلك يمرون بأزمة هوية .
3- كلما كانت الخيارات أو البدائل التي يتعرض لها الفرد قبل المراهقة أو أثناءها كثيرة، كلما كان احتمال مرورهم بأزمة الهوية أكبر .

4- كلما توافرت للمراهق نماذج تتمتع بالنجاح، توافر الاحتمال الكبير لأن يشكل الفرد التزاماً إذ إن هوية الوالدين يمكن أن تؤثر بشكل أو بآخر على عملية تطوير الهوية من نموذج القيم الذي يمتلكونه بالنسبة للمراهق .

5- إن طبيعة التوقعات الاجتماعية المتعلقة باختبارات الهوية التي تنبثق من الأسرة والمدرسة وجماعات الرفاق ستسهم في تطوير هوية معينة، فالشخص الذي يتعرض لجماعة اجتماعية ذات تساؤلات قليلة غالباً ما تقل معاناته من أزمة الهوية مقارنة بالجماعات التي تكون فيها التساؤلات أكثر شيوعاً .

6- إن تزويد الفرد في مرحلة ما قبل المراهقة بالأساس لمواجهة أزمة الهوية يساعده على أن يكون أكثر نجاحاً في مواجهة هذه الأزمة.⁽¹⁹⁾

الاستنتاجات في ضوء الجانب النظري والدراسات السابقة :

لقد أدى هذا الاستعمال المفرط لشبكة الانترنت وخدماتها المختلفة إلى حدوث عدة انعكاسات على الأفراد المستعملين وعلى المستوى العام للمجتمع، سواء كانت انعكاسات اجتماعية، أو نفسية، أو أخلاقية، أو ثقافية، فالتقنيات الاتصالية للانترنت تجعل الفرد يشعر بمتعة وانبساط؛ نظراً لإمكانية الحديث مع أشخاص من كل أنحاء العالم وفي وقت آني ومتزامن، وهذا ما يجعله يستغرق في النقاشات ويقضي أوقاتاً دون أن يشعر، ومن ثمّ "ينفصل عن المجتمع الحقيقي ويدخل في مجتمعات افتراضية"، ويصبح شخصاً غريباً عن مجتمعه، وينقص اهتمامه بقضاياها وبأحداث محيطه الاجتماعي، ومع مرور الوقت يتحول إلى شخص منعزل تماماً

عن بيئته الاجتماعية، ويصيبه ما يسمى "بالانعزال الذاتي"، ويزداد ارتباطه بأصدقائه الافتراضيين، إلى درجة يفقد فيها الرغبة في الجلوس لمدة طويلة مع أفراد عائلته وأصدقائه، ويعود هذا الارتباط الشديد بالجماعة الافتراضية وبمنتديات المحادثة الالكترونية إلى كون هذه المنتديات "توفر بيئة يقوم فيها الأفراد بتطوير شعور الانتماء والهوية الاجتماعية، وتوفر بنيات اجتماعية موجودة في المجتمع الحقيقي.

ولا شك أن القيم الجديدة التي أنتجتها هذه الوسائل أصبحت تهدد مسار الهويات المحلية بتحطيم الخصوصيات الثقافية التقليدية وانصهارها في ثقافة عالمية واحدة، وذلك بامتلاكها قدرات عالية في التأثير والتوجيه، وبالتالي إحداث تغير فعال يمس صميم الثقافات الأصلية وثوابت الهوية المحلية، كالأخلاق أو الدين أو اللغة، ومن الانعكاسات التي تحدث كذلك من جراء استخدام منتديات المحادثة الالكترونية باعتبارها وسيلة اتصال، "الاغتراب الثقافي والتنميط الاجتماعي"¹، الذي يجعل الفرد يشعر وكأنه لا ينتمي إلى ثقافة مجتمعه، وتبدأ أعراض التملص من عادات مجتمعه وتقاليد، وتبدو أعراض التشبث بالقيم الغربية، وأنماطهم الثقافية الناتجة عن كثرة الاحتكاك بهم والاتصال معهم، وتنتضح في مقابل ذلك مظاهر التغير القيمي من فتور العلاقات الاجتماعية وانتشار قيم الفردية، وظهور عادات لا تمت إلى هويتنا بصلة، وظهور أساليب عيش جديدة وعدم الاكتفاء بالضروريات.

وقد يعزى ذلك إلى عدم توفر أماكن للتسلية والنوادي العلمية للمراهقين، الأمر الذي يجعل هذه الفئة تتجه للعالم الافتراضي، لأنه يعد ملاذاً للذين يعانون من عدم الاستقرار الداخلي وعدم التكيف الحسي والمزاج المتقلب، والمراهق في هذه الظروف ينقمص الشخصيات في مختلف الأدوار التي يشاهدها، فإما أن يعيش في الخيال، أو يحاول تقليدها .

واندماج الفرد كلية في الاتصال مع أشخاص آخرين يحدث له نوع من الشعور بالولاء والانتماء والالتزام بمعايير جماعته الافتراضية، ومن تمّ تبني مواقفهم و أفكارهم واتجاهاتهم، بالإضافة إلى ذلك فإن المحادثة لأوقات طويلة يجعل الفرد يتخلى عن سلوكيات كان يقوم بها لتحل محلها أخرى، ولهذا يُحذّر المختصون من أخطار الاتصالات الالكترونية وانعكاساتها على الأطفال والمراهقين، ومن إمكانية انحراف سلوكياتهم وأخلاقهم.

من أخطر الانعكاسات التي يمكن أن تنتج عن الاستعمال المفرط للخدمات الالكترونية، تلك المتعلقة بالجانبين الديني والأخلاقي، حيث إن مناقشة مواضيع تافهة وانحرافيه، قد تؤدي إلى "تدهور منظومة القيم" وانحطاط أخلاقي لدى الأفراد؛ لأن الحديث الالكتروني قد يكون مع أشخاص جديين ومتخلفين كما قد يكون مع أشخاص منحرفين لا قيم لهم ولا مبادئ، وهذا ما يشكل خطراً للمراهقين؛ لأنهم دائماً ينساقون وراء ما هو غامض ومجهول نظراً لفضولهم الكبير، ومحاولة اكتشاف كل شيء، ولهذا فإنهم قد يتعرضون لنقاشات إباحية تؤدي إلى انحراف سلوكياتهم بشكل كبير .

إن استعمال تكنولوجيا الاتصال الحديثة بصفة عامة وشبكة الانترنت بصفة خاصة، أدت إلى حدوث عدة انعكاسات اجتماعية وثقافية وعلمية ونفسية... الخ، وذلك سواء على المستوى الفردي للمستخدمين أو على المستوى الجماعي في المجتمع ككل، وتبين لنا أن الآثار الاجتماعية والنفسية للإدمان الاتصالي كانت أعمق وأكثر مما يتصوره الكثير، ولاسيما فئة المراهقين، حيث لا يمكن ممارسة المراقبة كلياً، وهذا الاجتياح الهائل لأنواع تقنيات الاتصال وتكنولوجياتها كافة، يتطلب توفير قدر ملائم من التعليم والتنشئة بدءاً من السنوات الأولى من حياة الفرد، لتمكينه من التعامل مع معطيات التقدم العلمي والتكنولوجي، مع الحفاظ على الهوية الثقافية في الوقت ذاته، فالتقدم الذي نشهده حالياً في جميع المجالات

وتأثيرات المعرفة الحديثة الواضحة فيه، قد ضيق المسافة بين الفرد وبين العلم والتكنولوجيا بصورة تستوجب أساليب تنشئة وتربية جديدة.

وبما أن الأسرة هي المسؤول الأول في توجيه الأبناء وتزويدهم بالمعارف والخبرات وتنمية الشخصية المستقلة فيهم، وتعويدهم على صناعة القرار والتنفيذ وتحمل مسؤولية النتائج، عليها أن تعمل على تطوير معارفها ومهاراتها التقنية المعاصرة تدريجياً مهما كانت درجة تعليمها أو ثقافتها العامة أو الخاصة بالكمبيوتر والإنترنت والتكنولوجيا؛ حتى تتمكن من توجيه أبنائهم وإرشادهم والإشراف عليهم عند استعمالهم هذه التقنيات الحديثة ومشاركتهم ما يقومون به من تعلم وتثقيف بواسطتها والوقوف في وجه مخاطرها .

التوصيات

في ضوء النتائج السابقة، توصي هذه الدراسة بالآتي:

1- ضرورة الانتباه لخطورة تأثير العالم الافتراضي بإجراء المزيد من الأبحاث، خاصة وأن التوقعات المستقبلية في ضوء النتائج العامة للدراسات السابقة حول هذا الموضوع تؤكد استمرار استخدامها والاعتماد عليها .

2- تصارع القيم وعدم الوعي بها قد يؤدي إلى الاضطرابات النفسية حيث تؤدي للقلق والإحباط والعنف والمفهوم السلبي للذات، ولذا توصي الدراسة بتكثيف الدراسات النظرية والعملية والميدانية لرصد ظاهرة إدمان الانترنت ومعرفة مدى انتشارها في المجتمع وآثارها على المراهقين بشكل خاص في أدايمهم العلمي وحياتهم الأسرية.

3- دعم التوعية الأسرية والإعلامية بالمخاطر الاجتماعية والأخلاقية الناجمة عن استخدام شبكات التواصل الاجتماعي، ومشاركة الأسرة للأبناء في بيان أهمية استخدام الانترنت وتحديد إيجابياته وسلبياته.

4- وضع برامج إعلامية توعويه للمراهقين لترشيد استخدام تلك الشبكات، وإصدار نشرة إعلامية إرشادية بالثانويات، توزع داخل المدارس لنشر الوعي لديهم بضرورة الاستفادة من الانترنت بشكل إيجابي .

وتقترح هذه الدراسة: إجراء المزيد من البحوث حول النسق القيمي للشباب وعلاقته بالعالم الافتراضي، ورصد التأثيرات المحتملة لاعتمادهم علي تلك الوسائل الالكترونية.

الهوامش

- 1 (وجدي بركات، توفيق عبدالمنعم، الأطفال والعوالم الافتراضية، مؤتمر الطفولة في عالم متغير، الجمعية البحرينية لتنمية الطفولة، 18 – 19 / 2009 م .
- 2 (عيسى عيسى العسافين، المعلومات وصناعة النشر، دمشق، دار الفكر، 2001م، ص 42.
- 3) يامين بودهان، تحولات الإعلام المعاصر، عمان، دار اليازوري، 2012، ص12.
- 4) www.ergo-eg.com/ppt/2vra.pdf
- 5) محمد منير حجاب، المعجم الإعلامي، القاهرة، دار الفجر، 2004، ص 470.
- 6 (إبراهيم بعزیز، الاستخدام المفرط لوسائل الاتصال الحديثة من طرف الأفراد الآثار والانعكاسات، الملتقى الأول، تأثيرات وسائل الإعلام الجديدة على الأفراد والمجتمعات، جامعة فرحات عباس، سطيف، 2010.
- 7 (مريم نريمان نومار، استخدام مواقع الشبكات الاجتماعية وتأثيره في العلاقات الاجتماعية، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الحاج لخضر باتنة، الجزائر، 2012، ص91.
- 8 (إبراهيم بعزیز، مرجع سابق
- 9 (المرجع نفسه .
- 10 (فريال حمود، مستويات تشكل الهوية الاجتماعية وعلاقتها بالمجالات الأساسية المكونة لها لدى عينة من طلبة الصف الأول الثانوي من الجنسين، مجلة جامعة دمشق، المجلد 27، 2011، ص 565.

- 11 (فريال حمود، مرجع سابق، ص 557.
- 12 (لينا عزالدين علي، رتب الهوية الاجتماعية والإيديولوجية وعلاقتها بالاغتراب النفسي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة دمشق، 2007، ص 45.
- 13 (حسين عبدالفتاح الغامدي، تشكل هوية الأنا وفق نظرية اريكسون ونموذج جيمس مارشا، شبكة المعلومات الدولية، [www. pdfactory.com](http://www.pdfactory.com)
- 14 (المرجع السابق .
- 15 (فؤاد أبوخطب، آمال صادق، نمو الإنسان من مرحلة الجنين إلى مرحلة المسنين، ط2، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1990، ص 377.
- 16 (خليل عبدالرحمن الطرشاوي، أزمة الهوية لدى الأحداث الجانحين مقارنة بالأسوياء في محافظات غزة في ضوء بعض المتغيرات، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، الجامعة الإسلامية، غزة، 2002، ص 16.
- 17 (بول مسن وآخرون، أسس سيكولوجية الطفولة والمراهقة، ترجمة أحمد سلامة، مكتبة الفلاح، الكويت، 1986، ص 485.
- 18 (عاهد محمود محمد مرتجى، مدى ممارسة طلبة المرحلة الثانوية للقيم الأخلاقية من وجهة نظر معلمهم في محافظة غزة، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة الأزهر، غزة، 2004، ص 51.
- 19 (عبدالله فلاح المنيزل، أزمة الهوية دراسة مقارنة بين الأحداث الجانحين والأحداث غير الجانحين، دراسات العلوم الإنسانية، المجلد 21، 1994، ص 145.